وبهذا نرى الحجاج في معظم المنتخبات متلزما بالحجة البليغة قولا وإنجازا يطالب بها الطرف الآخر، باعتبارها قانونا للممارسة الخطابية التي تحفظ فيها حقوق المتخاطبين وواجباتهم التي لا تخرج عن المعيار المنطقي والخلقي في الوقت ذاته؛ الذي أساسه الصدق في القول، وجلب المنفعة للآخر، كأن يكون أثرا يحدث في النفس ويؤدي إلى فعل ما.

وبديهي أن الخطيب لا يقدم الحجة من أجل إلحاق الضرر بالآخرين، وإنما من أجل تقديم النصيحة وقبولها، ولعل هذا ما يعكسه قول الحجاج: «وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله» على أن هذا التهديد الأخير الذي يختم به الحجاج خطبة الولاية، يخلق فرضية للقبول في خضم الوضع التحاوري.

III- صور الحجاج في منتخبات الحجاج:

مرّ المنطق في علاقته باللغة بمرحلتين؛ تمثلت الأولى في المنطق الأرسطي الذي له علاقة مسبقة ومتوازية بين المنطق واللغة مبنية على أساس التعريفات ذاتها، وهكذا لم يكن المنطق سوى تحليل للفكر القائم على اللغة، أما المرحلة الثانية فقد أسفرت عن القطيعة بين الجانبين (المنطق واللغة) حيث بنى كل من «بول» (Boole) و«مورجان» (Morgan) نموذج المنطق كلغة صناعية تهدف إلى تفادي وجوه القصور في اللغة الطبيعية، كاللّبس وعدم التماسك[1].

1)- بلاغة الخطاب وعلم النصّ، ص: 12.

أما التعريفات التي تقدم اليوم عن اللغة، فإنها تتأسس على منطلقات وظيفية تأخذ في حسبانها لغة الحياة بمسوياتها المختلفة باعتبارها ظاهرة بشرية، وبعد الكلام هو الإطار الشرعي للظاهرة اللسانية، ثم يأتي مفهوم التداولية ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة العربية القديمة بعبارة «مقتضى الحال» التي أنتجت المقولة الشهيرة «لكل مقام مقال».

وإن كنا نعثر على سابقتها الواضحة في عبارات «شيشرون» (Ciceron) الروماني الذي يقول: «إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات، أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكلم دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء، ولا لصالح كل شيء، عليه إذن لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا»[1].

وانطلاقا من هذه المفاتيح التي يسلمنا إياها «شيشرون» يمكننا الولوج إلى عالم خطب الحجاج «لنكشف الأدوات الإقناعية التي استعان بها، حتى يكون جديرا بلقب الرجل البليغ.

III–1– القياس الخطابي:

يتسع القياس الخطابي ليشمل كل صور الاستقراء والاستنتاج القائمة على الاحتمال لا القطع، وأولها: التعارض والتضاد، وثانيها التقسيم المستقصي.

III–1–1– التعارض والتضاد:

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

1)– La Cienca del Texto, Van Gijek, Trad Barcelona, 1984, P: 79.

1- قال الحجاج في إحدى خطبه: «زعمتم أني ساحر، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَاحِرِ﴾، وقد أفلحت»[1].

وتخريج هذا المقتطف هكذا:

- لا يفلح الساحر.
- أفلح الحجاج
- الحجاج ليس ساحرا.
- هم كاذبون، لأن تصديقهم يؤدي إلى تكذيب الله، والله أكبر منهم، إذن: لا مفر من أن ينكسر الأصغر.

2- «زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم مالا تعلمون؟»[2].

وتخريجه:

- من يعلم الاسم الأكبر لا يغلب.
- تفترضون أني أعلم الاسم الأكبر.
- إذن: أنتم مخطئون في مقاتلتي.

3- وقال أيضا: «يا أهل العراق، بلغني أنكم تروون عن نبيكم أنه قال: من ملك على عشر رقاب من المسلمين، جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور، وأيم الله، إني لأحب إلي أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا»[3].

---

1)- العقد الفريد، ج140/4.

2)- المرجع نفسه، ج46/5.

3)- العقد الفريد، ج46/5.

وتخرجه:

- أبو بكر وعمر حكما.
- الحكم لم يوبق أبا بكر وعمر.
- الحكم لا يوبق أحدا.

وفي هذا المقتطف الأخير، نلمس استشهادا بالمثل الرفيع الـــذي لا يجـــرؤ المستمع على الطعن فيه؛ كما فيه تحقير لأهل العراق وكما هو معلوم فإن للمثل قوة القياس المضمر، كما أن الحكمة إذا أضيف إليها تفسير صارت قياسا[1].

وقصارى ما نود توضيحه، أن منتخبات الحجاج لم تخل من الأقيـــسة العقلية المتنوعة، التي يدخل معظمها فيما أحصاه «أرسطو» وذلك أنها تعـــود إلى طبيعة العقل الإنساني وإلى مبادئه، ولكن لا يجب الاتجاه إلى المنطق المكثف ولا إلى الحجة العقلية الصريحة، لأن مجال ذلك هو المناظرات بين المكلمـــين وأصحاب المذاهب الدينية، لا الخطابة التي توجه إلى متلق ليس في مقدوره إلاّ التنفيذ والاستجابة.

ولقد سبق الذكر أن القياس الخطابي يقوم على الاحتمال والتـــرجيح، ومجاله الأساس في نظرية «أرسطو» المرافعات القضائية، وإن كان موضـــوعنا ليس هو الخطابة القضائية، فإن الواقع يقتضي منا الاعتراف بأن كل المواقف يسعى فيها الخطباء إلى تبرئة الذمة ودفع التهمة لفعل شنيع. كما فعل الحجاج بن يوسف عندما قتل عبد الله بن الزبير بالحرم، وجزع الناس لذلك جـــاء في جمهرة خطب العرب:

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط2، ص: 76.

«ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع أدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها، بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة»[1].

فلكي يهون الحجاج من شأن قتل ابن الزبير في الحرم، أتى بقصة أدم وخروجه من الجنة، وتقوم رؤية الحجاج في هذا المقتطف على مقاله تفصيلية ضمنية من ثنائياتها.

- ابن الزبير ⟵ آدم، وآدم أكبر من ابن الزبير
- حبر هذه الأمة ⟵ خلقه الله وأسجد له الملائكة.
- الطمع في الخلافة ⟵ الأكل من الشجرة الخلد.
- الخلافة ⟵ الخلد.
- مكة ⟵ الجنة، والجنة، أكبر من مكة.
- الدولة (الخليفة + الحجاج) ⟵ الله جلّ وعلا.
- القتل ⟵ الطرد من الجنة.

ويمكن تفصيل هذه المعطيات كالآتي:

أ- المشبه به:

- الله خلق آدم وأنعم عليه بأن أسجد له ملائكته وأسكنه جنته واشترط عليه ألا يأكل من شجرة الخلد.

1)- جمهرة خطب العرب، ج2/287.

– آدم لم يف بالشرط وأكل من الشجرة.

النتيجة: حلّ به عقاب الله وهو الطرد من الجنة.

ب– المشبّه:

– اختلف ابن الزبير مع الدولة الأموية دون منٍّ منها، أو التزام منه.

– قتل ابن الزبير لهذا الاختلاف.

وعلى الرغم من أن المعطيات بين المشبه به والمشبه لا تتطابق، وعلى الرغم من أنها تقوم على الإيهام بالتشابه، فإنها مقبولة في الخطابة التي تقوم على الاحتمال والإمكان لا على اليقين[1].

وهكذا يتجلى أن الحجاج يكون قد قدر ردود أفعال جمهوره، وبنى عليها أقواله، وهو لذلك استنبط تلك الأقوال الافتراضية (زعمتم أني ساحر) حججا هيأ لها أخرى (وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾) وقد أفلحت. و«زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر، فلم تقاتلون من يعلم مالا تعلمون؟» مما يسمح لنا بالوقوف على خطابين، أحدهما ضد الآخر. وبما أن الخطاب الحجاجي يتموضع دائما قياسا بخطاب ضد حقيقي أو تقديري، فإنه يسهم في تحقيق النشاط التواصلي الذي تفرضه البنية اللغوية ذاتها أو السياق النصي. وقد يتعين بطريقة مباشرة عن طريق الروابط الحجاجية (Connecteur Argumentatif) التي تصل المقدمة بالاستنتاج وتتدخل في توجيه دلالة المحاججة، كالقسم، والاستفهام، والشرط وغيرها[2].

1)– في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2/79.

2)– تحليل الخطاب الصوفي، ص: 118.

وتبدو تلك الإجابات أو الإقرار بعدم صحتها سببا لنتائج معينة، هي بمثابة الفعل الاستنتاجي العام الذي تتمحور حوله كل المعطيات الحجاجية في هذا الخطاب، والأساس الذي يقيم عليه المتكلم استدراجه للمخاطب، ولهذا نقول إن المتكلم «يقوم بالفعل الاستنتاجي حينما يتلفظ بقول ما، وفي الوقت نفسه يرجع إلى معطى معين يقدمه على أساس أنه نقطة انطلاق لاستدلال سيؤدي إلى إصدار القول»[1]. ولذلك فإن الفعل الاستنتاجي ما هو في الحقيقة إلا خطاب حجاجي مرتبط بالوضعية التبليغية التي يقيمها الحجاج على التأثير والإقناع.

ولعل بنية المخاطبة على هذا الوضع التبليغي هي التي حذت بالحجاج إلى الشرح والتعليل والتدعيم، في خطبته بعد قتله ابن الزبير في الحرم وجزع الناس لذلك كما سبق وأن رأيناه.

III-1-2- التقسيم المستقصي:

جاء في إحدى خطب الحجاج بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن الله كفانا مؤونة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة، فليت الله كفانا مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا، مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون، وشراركم لا يتوبون؟!، مالي أراكم تحرصون على ما كفيتم، وتضيعون ما به أمرتم؟!»[2].

فالمتلقي لهذه الخطبة، يدرك أن الحجاج يسعى إلى الإيحاء بالإحاطة بالموضوع من كل جوانبه، وذلك لصرف نظر المستمع عن البحث

1)- L'argumentation dans la langue, O.Ducrot et Anscoubre, Pierre Margada, édition, Paris, P: 1983.

2)- عقد الفريد، ج113/4.

والتقصي، ولعل الشيء الذي يسهل الإقناع في هذه الخطبة هو ذلك «العجب» وتلك «المقابلة».

III–2– المثل:

يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء في المنطق، ومن هنا يمكن الجزم أن المثل هو استقراء بلاغي؛ كما أنه حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية لأحديهما وذلك بالنظر إلى مماثلتها[1].

ولقد انتبه دارسوا النص القرآني –والبلاغيون العرب بالمساهمة والمثاقفة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع، ومن هؤلاء ابن وهب الذي يقول: «وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا، وأقرب مذهبا، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[2] وقال: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِم، وَضَرَبْنَا لَكُم الأَمْثَالَ﴾[3]، وكذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها»[4].

---

1)– بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 82.

2)– سور الروم، الآية: 58/ سور الزمر، الآية: 27

3)– سورة إبراهيم، الآية: 45.

4)– البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 117–118.

ويستعمل المثل في تقدير الزركشي «لإخراج مالا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما لم تجربه العادة، ومالا قوة له من الصفة إلى ماله قوة»[1] كما أن المثل «قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدها الآخر ويصوره...»[2] وهكذا فإن المثل يؤثر في النفس مثل تأثير الدليل[3].

وبعد هذا، فإن المثل دعامة كبرى من دعائم الخطابة، لما يحققه من تأثير وإقناع، وهو إذا أخذ بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه، والاستعارة، صار أهم دعامة من دعائم البلاغة، وهذا هو المنحى الذي سار عليه بيريلمان وأولبريشت في كتابهما المشهور (traité de l'argumentatif) ولا شك في أنه المنحى نفسه الذي انتهجه حيث ربط بين علم البيان (وعماده: التشبيه والتمثيل والاستعارة) بعلم المعاني من جهة، وعلم الاستدلال من جهة ثانية[4].

ويتنوع المثل من التاريخي إلى التشبيهي فمن المثل التاريخي، استغلال الحجاج قصة آدم وشجرة الخلد، لكي يبرر موقفه المحرج بعد قتله لابن الزبير –وقد سبق الحديث عن ذلك– وأما المثل التشبيهي، فيتمثل في تلك الآيات القرآنية التي يستشهد بها الحجاج في خطبه، كلما دعاه الموقف إلى ذلك.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في خطبة الولاية: فإنكم لـ﴿كَأَهْلِ قَرْيَة كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّة يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[5].

1)– الجدل في القرآن، محمد التومي، الشركة التونسية، تونس، 1980، ص: 232.
2)– المرجع نفسه، ص: 233.
3)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
4)– في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 85.
5)– سورة النحل، الآية: 112.

وتخريج هذا التشبيه كمايلي:

- أهل العراق ⟵ - أهل القرية
- أمير المؤمنين أمر الحجاج بإعطاء أهل العراق أعطياتهم. ⟵ - الله أتى أهل القرية رغدا من كل مكان
- أهل العراق إذا لم يستقيموا على الحق كان عقابهم سفك الدماء، سلب الأموال وتهديم الديار ⟵ - أهل القرية كفروا بأنعم الله فتحول أمانهم وطمأنينتهم إلى خوف وجوع.

والملاحظ أن هذا النوع من التمثيل يقوم على الاستعارة والرمز بصفة عامة (فسفك الدماء، وسلب الأموال، وتهديم الديار) رمز للخوف والجوع، و«إعطائكم أعطياتكم» رمز إلى النعمة، وقوله «أن أوجهكم لمحاربة عدوكم» رمز لتحقيق الطمأنينة والسلام بعد الاستجابة للنداء والقضاء على العدو.

وخلاصة القول أن نماذج الأقيسة الخطابية من تعارض وتضاد، وتقسيمات مستقصية وتمثيل كلها تمثل ما يسمى بالانسجام الداخلي للخطاب الإقناعي.

IV- الانسجام مع الخارج.

تسمى الوسائل المستعملة في هذا الصدر عند أرسطو بالحجج أو البراهين الجاهزة، أو غير الصناعية، وتتضمن الشهود والاعترافات والقوانين وأقوال الحكماء، وإن كان هذا يخص الخطابة القضائية، فإن الخطابة العربية تتضمن بالمقابل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالإضافة إلى الشعر والأمثال والحكم، وهي أيضا براهين جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مدى